سلسلة أمراء النصر والتحرير

ثمن الصمود والإنتصار

الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
AL - MAAREF ISLAMIC CULTURAL ASSOCIATION

ثَمَنُ الصّمود والانتِصار

ثَمَنُ الصّمود والانتِصار

جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
CULTURAL ISLAMIC AL-MAAREF ASSOCIATION
بيروت، لبنان، حارة حريك، شارع دكاش
تلفاكس: ٠١/٢٧٣٧٦٦
ص.ب: ٢٤/٥٣ - ٢٥/٣٢٧
www.maaref.org Email: info@maaref.org

الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

- عنوان المسابقة: أروع قصص الصامدين
- عنوان القصة: ثَمَنُ الصّمود والانتِصار
- الكاتب: الأستاذ علي فاعور
- الرعاية: بلدية بعلبك
- المنظم والناشر: جمعية المعارف الإسلامية الثقافية

الطبعة الأولى - تموز - ٢٠٠٨م

ثَمَنُ الصّمود والانتِصار

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

.. إلى البواسل والفرسان الأبطال الأكفاء في ميادين الحروب ومواقف النزال الذين قارعوا العدو من أجل الحرية والاستقلال.

.. إلى من جمع الله له من صفات الشجاعة والثبات والعزيمة.. الإخلاص والتضحية.. الفارس الهمام والقائد الأشم.. السيد حسن نصر الله.. (حفظه الله ورعاه).

.. إلى من غرس في نفوس أبنائهم حب الوطن والتضحية ليغدوا..رمزاً للتضحية والحب والشهادة .. الفداء والوفاء ..

إلى الصامدين الأوفياء ..

إلى عوائل الشهداء ..

إلى الشهداء..

أهدي عملي هذا ..

ثَمَنُ الصّمود والانتِصار

ثمنُ الصّمود والانتصار

باكراً دحرتِ الخيامُ ما تبقّى من جيوشِ العتمة، ونهضتْ من سُباتِها كَعَروسٍ مَجْلوّةٍ، يحرسُها جبلُ الشّيخِ بِشموخِهِ ووقارِهِ منَ الشّرق، وقلعةُ أرنونَ المُتعاليةُ شمماً وإباءً منَ الغرب. وتُعطّرُ جوّها نُسيماتُ هواءٍ تهبُّ عليها بينَ الفينةِ والفينة من جارِها «المَرْج» مُشبعةٌ بِرائحةِ الياسمينِ والعُطرِ والزّعترِ والطّيون..

وصباحاتُ الخيامِ ليست كغيرِها في القُرى والبلداتِ المُجاورة ! فهي محطّاتٌ لِلفرحِ والنّشاط... فهُنا نِسوةٌ تحلّقْنَ حولَ صينيّةِ قهوةٍ كَفراشاتٍ اجتذبَها نورُ المصباح، وهُناكَ نداءاتٌ يتردّدُ صداها بينَ السّفوحِ والتّلال، وهُنالكَ صخبٌ وضجيجٌ وضحكاتٌ تملأ الحَناجر..

أمّا عندما يستريحُ المساءُ أمامَ بيوتِ الخياميّينَ، وتُباغتُ العتمةُ والسّكينةُ مصاطبَهم والدّروب، يُصبحُ لهم شأنٌ آخرُ مع الحكاياتِ وألعابِ التّسليةِ وساعاتِ المَرحِ والتّندّرِ.. الّتي يكونُ لها مع بداياتِ اللّيلِ نكهةٌ خاصّةٌ وطَعمٌ مُميّز..

والخياميّون مع كلِّ صيفٍ، ومنذُ فجرِ التّحرير، يومَ قامتِ الخيامُ من تحتِ الرّكامِ والدّمار كَطائرِ الفينيق، يعتبرونَها قبلتَهم المُقدّسة

ثمنُ الصّمود والانتِصار

وفسحتهم المُفضّلة. لذا تراهم مُقبلينَ على الحياة يَعبّونَ منها ما وسعهم، مُتناسينَ مآسي الحروبِ والتّهجير والدّمار الّتي ذاقوا مرارتَها في السّنواتِ الماضية.

لقد قفزوا فوقَ الذّاكرة.. خلعوا أحزانَهم، وأوصدوا أبوابَ الماضي خلفَها كي لا تُذكي رياحُها شُجونهم..

وإذا كانَ لكلِّ قاعدةٍ شواذٌ، فشواذُ القاعدةِ هنا، امرأةٌ في العقدِ السّابعِ منَ العُمر، فلحتِ الأيّامُ في وجهها أثلاماً كتُربةٍ شقّقها الجفاف، وتركتْ حولَ عينيها سواداً أشبه بالكسوف.

إنّها الحاجّة «رفعة» الّتي دأبتْ على التنقيبِ، وعلى غير قصدٍ منها، عن أفراحٍ عَبرَتْ ومآسٍ مَرّتْ كآثارٍ منسيّةٍ من حقبةٍ مضتْ، يحلو لها إيقافُها، والتّنصّتُ إليها، واسترجاعُ صداها..

حتّى الأمسِ القريب، كانت «رفعة» تُقيمُ في بيتٍ مُتواضعٍ في حيٍّ من أحياءِ البلدةِ، يستيقظُ فجراً على صِياحِ الدّيوكِ وثُغاءِ الماعزِ وخوارِ الأبقارِ وجَلَبةِ الفلاّحينَ والمُزارعينَ الطّالعةِ عليهِ من جهةِ السّهل.. وينامُ بِهدوء، وقد تدلّى القمرُ فوقَ شبّاكهِ، حتّى لَيكادَ يُسمَعُ عندَ إطلالتِهِ وجيبُ قلبه.

كان بيتُها مُشرّعاً لِلفقرِ والبُؤسِ والشّقاء، ومُحصّناً بِالإيمانِ والطّمأنينةِ والتّعفّفِ وراحةِ البال ... يضمُّ في كنفِه عائلةً صغيرةً هي كناية عن زوجٍ جفَّ نَسْغُ الحياةِ في أوصالِه، وولدَين تَسلّلتْ الإعاقةُ إلى جسديهما الطّريّين، قبلَ أنْ تقسو حبّات سنابلِهما..

لكنْ، كما تُردّدُ الحاجة «رفعة» دائماً على مسمعِ زائريها:

«رضينا بالفقر، والفقر ما رضي فينا»

ثمّ تتنهّد بِحَسرةٍ وهي تردّدُ: «سقى اللّه تلكَ الأيّام!» وتدمعُ عيناها عندما تتذكّرُ أنّها بقيتْ حتّى الأمسِ القريب راضيةً قانعةً بِشَظفِ العيش وبساطته، إلى أن عبثتْ يدُ القدرِ بِصغيرِ ولدَيها، فأطفأتْ في روحِها شمسَ الأمل، واختَلسَتْ من بينِ أضلاعِها جذوةَ الحياة..

إنّها تتذكّرهُ الآنَ.. عندما كانَ يدرجُ أمامَها أوّلَ خطواته .تتذكّر أيَّ فرحٍ شعرتْ به ذلكَ اليوم، وأيّ غصّةٍ تنهشُ أضلاعها بعد فراقه.

رغمَ كآبتِها ومُحاولتِها التّنصّلَ من أوجاعِها الماضية، لم تُغيّرْ «رفعة» عادتها. فهي دائماً تسبقُ الشّمسَ إلى المصطبةِ والدّرب، تكنسُهما وتنظّفُهما قبلَ أن تدبَّ فيهما شُعلةُ الحياة، وينهضَ النّاسُ منَ النّوم.

«رفعة» لم تتهجَّ في الكُتبِ المَدرسيّة، ولم تُلوِّنْ بِالأقلام، ولم تجمعْ على الورق..

ففي مَطبخِها، وحديقةِ بيتِها، وحُقولِ الزّعترِ البرّيّ تلقّنتْ دُروسَ الحياة.. ومن شُتولِ الياسمينِ والزّنبقِ والوردِ الجوريّ أصبحتْ تُميّزُ الألوان.. ومن خلالِ تربيةِ الطّيورِ والدّواجنِ أتقنتْ لُغةَ الأرقام..

تلكَ كانتْ دُروسها اليوميّة. تتلوها بوجدانِ التّلميذةِ الواثقةِ من نفسِها، غير مُتوجّسةٍ من أن تسقطَ كلمةٌ سهواً، أو أنْ تغيبَ جُملةٌ عن بالِها.

الدّربُ إلى بيتِ «رفعة» ضيّقةٌ ومَوشومةٌ بِحكاياتِ الضّيعةِ والمُغامرات. وهي تتلوّى بينَ البيوتِ الّتي تُحاصرُها من الجانبَين؛

ثَمَنُ الصّمود والانتِصار

إنّها لا تتّسـعُ لِمرورِ سـيّارةٍ إذا صـدفَ أنْ كانتْ هُناكَ أُخرى مَركونةٌ إلى الرّصيف.

وهـي إلى ذلـكَ، لا مَنفذَ لها، تتوقّـفُ أمامَ مِصـطبةِ بيتِها كَجُملةٍ قاطعـةٍ لا تتركُ بعدها مجـالاً لِلكلام..لا تنعطفُ يَميناً أو يسـاراً، ولا تتشـعّبُ إلى سـائرِ أحياءِ البلدةِ وبُيوتِها. بِحيثُ ينبغي على سالكها أن يعودَ أدراجهُ من حيثُ أتى.

أمسِ، وبعدَ مرورِ عامٍ على حربِ تمّوز، زرتُ «رفعة» في بيتِها سالكاً تلكَ الدّرب.

كَتربةٍ عطشـى تتوسّـمُ المَطر، دفعني فضولي وشَـغفي لِلإمساكِ بِطرفِ خيطٍ أنسـجُ به مادّةً توثيقيّةً لِقصّـةٍ مَجبولـةٍ بِرائحةِ الأرض، وحرقـةِ دُمـوعِ الأرامل، وعَرقِ جهـادِ المُقاومين.. لعلّني أُضـيفُ إلى سِـجلّ الخيام صفحةً مُشرقةً تنهلُ منها الأجيالُ القادمةُ قِيَمَ الإيمانِ والصّمود والتّشبّثِ بِأرضِ الآباءِ والأجداد.

أمسِ، كانَ يوماً آخرَ !.

بيـتُ «رُفعـة» كَرقعـةِ الشّـطرنج!.. فهذهِ تبدو لـكَ لِلوَهلـةِ الأولى محدودةً وضـيّقة، لكن سُـرعانَ ما تتكشّـفُ عن أبعادٍ شاسـعة تَتّسعُ لِمُنازلـةِ المُلـوك، وكرِّ الأحصـنةِ وفرّها، وتصـادمِ القِـلاع.. كذلكَ بيتها، فزائرُهُ يجدُ فسـحةً صغيرةً لِلأسـئلةِ والكلام، ومساحةً كبيرةً لِلحزنِ والدّموع!..

لقد نأتِ المسافاتُ بينَ «رفعة» وبيتِها!.. فراحتْ تعدُّ على أصابعِها الأيّامَ والشّهورَ الّتي عجزَتْ عن إحصائها!.. رأيتُها تركنُ إلى الوحدةِ

والابتعادِ عنِ النّاس. في كلامِها دُعاء، وفي ابتهالِها رجاء ...

مرّتْ فترةٌ من الصّمتِ الثّقيل، قبلَ أن أتجرّأ على تحريكِ الماضي الرّاكدِ في عمقِ ذاكرتِها كمياهٍ آسنة. وبعدَ الاختصارِ والتّأنّي في انتقاءِ المُفرداتِ واختيارِ الجُملِ وتلطيفِ الأجواء، بادرتُها قائلاً:

ـ مُباركٌ عليكِ الانتصارُ يا حاجّة «رفعة».

أجابتْ، وقد بدَتْ على وجهِها مَعالمُ ابتسامةٍ تُجاورُ الحُزن:

ـ اللّه يُبارك فيك يا ابني ...ويُبارك بِشبابِ المُقاومة الّذين رفعوا رأسنا عالياً ... فبِفضلهم بعد اللّه تحقّقَ هذا النّصرُ المُبين.

ـ وبِفضلِ صبركم وصمودكم ودُعائكم يا خالة، فأنتم أهلُ المُقاومة وحاضنوها.

ـ اللّه يرضى عليك وعليهم ...نحنُ لم نقمْ إلاّ بما يُمليهِ علينا الضّميرُ والواجب.

ماذا قدّمْنا؟!.. صمَدْنا في بُيوتِنا، وتشَبّثنا بِأرضنا!.. وهذا من حَقّنا، وحقِّ الأرضِ الّتي أطلَعتْنا، والسّماءِ الّتي ظلّلتْنا، والمُجاهدينَ الّذينَ يجودونَ بِأغلى ما عندهم من أجلِنا..

ـ دائماً تُخجّلوننا بِنخوتكم وتواضعكم!.. بل قدّمتم الكثيرَ الكثيرَ على حسابِ أمنكم وراحتكم وسلامتِكم ...

ـ فدا الشباب، اللّه يحفظهم ... فداهم أرواحنا وكلّ ما نملك...

ـ والآن، يا خالة، هل لي أن أعرفَ الأسبابَ الّتي حملتكِ على البقاءِ والصّمود، مع أنّ معظمَ أهالي البلدةِ غادروها؟

ثمنُ الصّمود والانتِصار

كَمَن يُعيدُ تصفّحَ أوراقه المَنسيّة، انشغلتْ في استعادةِ أحداثِ تلكَ الفترةِ الّتي لا ترغبُ في استِحضارِها !. فلم أعدْ أسمعُ سوى أنفاسِها المُتقطّعةِ في صدرِها، وهيَ تقولُ، وفي صوتِها رجفةٌ حزينة:

ـ « أما جئتَ مُتأخّراً » ؟

قلت:

ـ « أنْ آتي مُتأخراً خيرٌ من أن لا آتي أبداً ... لعلّ المرحومَ أرسلني إليكِ ليبقى ذكرُه عطراً ما بقيتِ الخيام».

وقعتْ كلماتي في مَسمعِها نقيّةً صافية.

فتحتْ سِجلَّ يوميّاتِها، وهي تُحاولُ جاهدةً أنْ تُخفيَ آثارَ دموعٍ تدحرجتْ على خدّيها، فمسحتْها بِراحةِ يدِها، ثمّ قالتْ:

ـ من أينَ أبدأ؟

ـ من حيثُ شئتِ!..

تنهّدت، ثمّ انطلقتْ تروي تفاصيلَ مأساتها. فسارعتُ إلى لملمةِ خُيوطِ أحداثِ تلكَ القصّةِ المؤثّرة، مُجتهداً ما وَسعني في إعادةِ نَسْجها وتوثيقِ عراها.

قالتْ «رُفعَة»:

كانت أشعّةُ شمسِ الثاني عشرَ من تمّوز تتوهّجُ كَشلّالِ ضوءٍ من شُقوقِ النّافذةِ، وتمتدُّ أصابعُها في الخفاءِ لِتعيدَ ظِلالَ البُيوتِ والأشجارِ المُتخايلةِ إلى رُشدِها، عندما أعلنتْ إحدى قنواتِ التّلفزةِ المَحليّة خبرَ أسرِ المُجاهدينَ لِجُنديّينِ إسرائيليين.

بِسُرعةٍ أخلى النّاسُ السّاحاتِ والطّرقات، كأنّما ابتلعتهم الأرض!..

على جمرِ القلق راحوا يُواكبونَ النّبأَ الحدث لحظةً بلحظة.. لقد سُمِّرتْ أعينُهم على الشّاشاتِ الصّغيرةِ، والتَصقَتْ آذانُهم بأجهزةِ الترانزستر، وهم يُتابعونَ سيلَ البياناتِ الصّادرةِ عن شتّى وسائلِ الإعلام وهي تزفُّ الخبرَ وتصفُهُ بالعمليّةِ الجهاديّةِ النّوعيّة، أو تُدينهُ وتنعتُهُ بمُغامرةٍ غيرِ مَحسوبةِ النّتائج.. وذلكَ تبعاً لأهوائها الخاصّةِ ومُيولِها وارتباطاتِها.

أولى هذه الأخبار تحدّثتْ عن احتراقِ دبّابةٍ إسرائيليّة أُرسِلتْ بعدَ ساعةٍ من عمليّةِ الأسر، وعلى عمق أربعينَ متراً داخلَ الأراضي اللّبنانيّة.

بعدها، تواترتِ الأخبارُ عن دفعِ العدوِّ بجنودِ النّخبة إلى قلبِ المعركة مُعزّزينَ بالآليّات... واستماتتهِ في مُحاولةِ إنقاذِ جُنديّيهِ الأسيرين، فذهبتْ جهودُهُ أدراجَ الرّياح، وتكبّدَ مزيداً منَ الخسائرِ في الأرواحِ والعتاد.

لم تكدِ الفرحةُ تأخذُ مداها، حتّى انطفأ وهجُها لكثرةِ ما رافقَ البياناتِ والمُلحقاتِ الإخباريّة من تَخبّطٍ وبَلبلة .. فسادَ الوُجومُ والتّرقُّب، وغزتِ المَخاوفُ والشّكوكُ القُلوب، حيثُ تناقلتْ وسائلُ الإعلامِ المحلّيّةُ والعربيّةُ أخبارَ الغاراتِ المُتنقّلةِ الّتي يشنُّها الطّيرانُ المُعاديَ على الجُسورِ والعبّارات الّتي تربطُ العاصمةَ بيروتَ بالقُرى الجنوبيّة، لِمُحاصرةِ المُجاهدينَ وقطعِ الطُرقِ عليهم.

كنارٍ في الهشيم، انتشرَ الخبر، وسرتِ الشّائعاتُ مُسقطةً الأقنعةَ عن بعضِ الوُجوهِ، فكثرَ اللّغطُ، وتوالتْ التّعليقات :

ثَمَنُ الصّمود والانتِصار

قالتْ أمّ ماجد، وقد غادر أولادها منذُ نصفِ ساعةٍ تقريباً باتّجاهِ بيروت:

ـ يا بو ماجد، عجّل اتّصل بالأولاد لنطمئنّ عليهم.

وقالتْ أمّ يوسف العائدةُ لِتوّها من إحدى دولِ الإمارات:

ـ إذا صادفتْكَ لحظةُ فرجٍ طارئة، عليكَ الحذرُ من عواقبِها.. فمُصادفةٌ كهذه قد تُخفي في جلبابِها كثيراً من المُفاجآتِ والألمِ المُؤجّل.

وتابعتْ:

ظننّا وموسمُ الصّيفِ يطرقُ أبوابنا، أنّنا دفعْنا كلّ الفواتيرِ المُتوجّبةِ سابقاً وجميعَ المُتأخّرات.. لكنّ غولَ الحقدِ ما لبثَ أنْ فغرَ فاهُ، وكشّرَ عن أنيابِهِ مُطالباً بِالمَزيد.. نخشى أن يكونَ الثّمنُ هذهِ المرّة على حساب دمائنا وأرزاقِنا..

ـ طائراتُ الهوليكبتر المُعادية تحلّقُ فوقَ الأحراشِ والوديان، وفي كلّ مكان.. بَحثاً عنِ الخاطفين. قالتْ أم محمود.

ـ ماذا تقولين؟! ... اعترضَتْ أم حسين بِعصبيّةٍ ظاهرة ... إنّهم المُجاهدون الّذينَ سَيعرّونَ الوُجوهَ الصّفر، والعُيونَ الكاذبة، والعَوراتِ المَستورة!..

أما وعدَ السّيِّد حسن، اللّه يحفظه، بِعتقِ الأسرى من سُجونِ الاحتلال؟..

ألم يقلْ في أكثرَ من مُناسبة: نحنُ قومٌ لا نتركُ أسرانا في السّجون؟!..

ـ سوف نرى. لن تتأخّر إسرائيلُ في إفشالِ هذهِ المُغامرة، والعملِ

على استعادةِ جُنديّيها المخطوفين. وسندفعُ نحنُ الثّمن، على وقعِ لَهيبِ كُتلِ الحَديدِ والنّار، من بيوتِنا وأرزاقنا..

ـ لا أحد في العالم يستطيعُ إعادةَ الجُنديّينِ الأسيرين!.. يبدو أنّكِ نَسيتِ أو تناسيتِ ما قالهُ سيّدُ المُقاومة:

« لو جاءَ العالمُ كُلّه فلنْ يستطيعَ أنْ يُعيدَ الجُنديّينِ الأسيرينِ إلى إسرائيل!.. الطّريقُ الوَحيدُ هو التّفاوضُ غير المُباشر والتّبادلُ ليَعودَ أسرانا وإخوانُنا وأحبّاؤنا مرفوعي الرّؤوس، نستقبلُهم ونُقيمُ لهم الأعراسَ دونَ منّةٍ من أحد».

وكادتْ «أمّ محمود وأمّ حسين» تتماسكان، لولا أن سارعَ «أبو أمين» إلى تلطيفِ الأجواء، قائلاً:

ـ يا جماعة، هذا عدوٌّ حاقدٌ ولئيم، لا يفهم مع الأسف إلاّ بلغة القوّة. القوّة هي الوسيلةُ الوحيدة لِردّهِ إلى صوابِه، وردعهِ عن غيّه.

وتابعَ أبو أمين:

كم وكم منَ البياناتِ والإداناتِ الصادرةِ عن مجلسِ الأمن، مضى عليها عقودٌ من الزّمن، ولم يعملْ على تنفيذِها، ضارباً بها عرضَ الحائط؟! فهو لا يأبه لا لِشرعةِ حقوقِ الإنسان، ولا لِقراراتِ الأمم المُتّحدة!.. وهذا ما دفعَ المُجاهدين إلى خطفِ جنوده لاستعادةِ أسرانا.

ـ أما كانَ الأجدى أن تتولّى الحكومةُ اللّبنانيّة التّفاوضَ من أجل إنهاءِ هذهِ المُعضلة؟ قالَ أبو سعيد.

عندَ هذا الحدّ، توقّفَ السِّجالُ الدّائر على الطّريقةِ اللّبنانيّة «لا غالب ولا مغلوب»

ثمنُ الصّمود والانتِصار

رغـم أنّ «أمّ حسـين» لم تكن راضـيةً عـن هذهِ المُعادلة، فسـوّتْ منديلَها على رأسِـها، وقفلـتْ عائدةً إلى بيتِها مُمتعضـةً، وهي تُتمتمُ كلماتٍ غير مفهومة، وترسمُ بيديها إشاراتٍ مُبهمة.

وفيمـا كنتُ أستشـرفُ الأمـلَ والأمان عبـرَ هـذهِ المُفارقاتِ، في مُرورها الهـادئ والمُجلجل على ألسـنةِ الجيـران، انتزعني من هذا الجـوِّ المُفعمِ بِالمـرارةِ والرّجاء، انقطـاعُ البثّ في قنـاةِ المنار، ثمّ مُعاودةُ الإرسالِ من جديد عبر بيانٍ مُقتضبٍ يقول:

«الطّائـراتُ الحربيّةُ المُعاديـة تُغيرُ على الجسـورِ والعبّارات، في مُحاولةٍ منها لِقطعِ طريقِ السّاحل».

استولى على النّسوةِ شيءٌ من التّرقّبِ والإحباط، وبِتنَ يَرينَ الأمورَ تسـيرُ بِوتيرةٍ تصـاعديّة. وبسـرعةٍ، لم يكـن ممكناً معهـا أن يَفعلْنَ شـيئاً!.. هرعْنَ إلى تنظيفِ الملاجئ وانتظارِ ما هو أدهى وأمرّ. فيما الرّجالُ تَشاغلوا بِالتّحليلِ وتبادلِ الآراءِ ووُجهاتِ النّظر.

في أيّامها الأولى، بقيتْ الحربُ، الّتي دقّتِ الأبوابَ بِلا اسـتئذانٍ، مُشيحةً بِوجهها عنِ الخيام. لم تدنّسْ أقدامُها المُلوّثةُ بِالدّماءِ ثراها، ولم تُزعزعْ إيمانَ أبنائها الصّامدين الواثقينَ بِالنّصر.

الزّوايـا والملاجـئُ الّتي حسـبناها فـي حيّنا آمنةً بعضَ الشّـيء، راحتْ تُنادي بعضَـها بعضـاً: حاجّ خليل، بو أمين، حاجّة مريم، حاجّ حسين، أمّ مَحمود...

كنّـا نتسـاءلُ في قرارةِ أنفسِـنا عنِ العلاقةِ الّتي باتـتْ تربطُ بينَ هذهِ الأسـماء. أ هي علاقةُ الجيرةِ والألفةِ والمودّةِ الّتي كانتْ تجمعُنا

كلّ صباحٍ على رشفِ القهوةِ والشّاي فوقَ السّطوحِ والمصاطبِ والشّرفاتِ، أم شيءٌ آخرُ، لم نَجدْ له تفسيراً سوى الخوفِ والقلق من الآتي القريب؟!..

حينَ هوتْ أوّلُ قذيفةٍ في الجوار، مُرفقةٍ بِنارٍ ودُخان، مُدمّرةٍ البيتَ الّذي يقعُ في فم الدّرب، خاطرَ زوجي الحاجّ «خليل» بِحياتِه، وخطفَ رجلهُ قاصداً ذلكَ البيت.

اللهفةُ الّتي جرفَتْه بِسيلِها، سُرعانَ ما انحَسَرتْ وَطأتُها وخفَّ اضطرامُها وتأجّجُها، بعدما تأكّدَ لهُ أنّ البيتَ خالٍ من أصحابه، فحمد اللّه، وأكملَ طريقَهُ باتّجاهِ جارِه «الحاجّ حسين».

كانَ هذا الأخيرُ رجلاً مُتديّناً شجيّ الصّوتِ، يقضي مُعظمَ أوقاته في تلاوةِ القرآن الكَريم وقراءةِ ما تيسّر من الأدعية.. وكانتْ تربطهُ بِالحاجّ «خليل» عِشرةُ عُمر ... فهما يقضيانِ معظمَ الأوقاتِ معاً، ويؤمّانِ المَسجدَ معاً عندَ الفجرِ وفي المساءِ لِتأديةِ فريضةِ الصّلاة.

سألَ «الحاجّ حسين» وهو يسندُ خدّهُ بِكفّهِ المُرتجفة:

- شو صار بِهاكِ البيت؟

- تصدّعتْ جدرانُهُ، وتطايرتْ حجارتُهُ في كلِّ اتّجاهٍ مُقفلةً الدّرب.. الحمد للّه أنّ أصحابَهُ غادروهُ مُنذُ يَومَين.. وإلاّ لكانتْ حدثتْ كارثةٌ لا سمحَ اللّه. أجابَ الحاجّ خليل.

- يقولون إنّ أحدَ أبناءِ الحيِّ باعَ ضميرَهُ لِلشّيطان، ووضعَ أكثرَ من إشارةٍ على سطحِه وجُدرانِه !.

- هذهِ الأقاويلُ تردّدتْ كثيراً في الآونةِ الأخيرة، ولا ندري مدى صحّتِها!..

ثمنُ الصّمود والانتِصار

ـ خربتِ البلد يا «حاجّ خليل»، لقد هجرها مُعظمُ أبنائها.. لم يبقَ فيها إلاّ الشّيوخُ والعجائز، وقلّةٌ من العائلاتِ الّتي آثرتِ الصّمودَ، وهؤلاءِ المُجاهدونَ الّذين أقسموا ألاّ يُدنّسَ هذا العدوّ الحاقدُ أرضَهم الطّاهرةَ وأن لا يمرّ إلاّ على أجسادِهم.

وتابع «الحاجّ حسين»:

أوّلُ من أمس، شاهدتُ بأُمِّ العين قافلةً من الأهالي يَشقّونَ طريقهم في ساعاتِ الصّباحِ الأولى، بينَ كُرومِ الزّيتونِ والعنب، غير عابئينَ بِالشّوكِ والبَلاّن ينغرزُ في أرجلِهم..

وتنهّدَ «الحاجّ حسين» وقد اختنقَ صوتُه:

رأيتُهم يزيحونَ بأيديهم الأغصانَ المُتشابكة الّتي كانتْ تَعترضُهم.. رأيتهم يحملونَ أمتعتهم بِأيديهم وفوقَ المَناكبِ والرّؤوس.. كانوا يَسوقونَ أطفالَهم أمامهم، عبرَ الأوديةِ والشّعاب،كانوا إذا وقعَ شيءٌ من أمتعتهم انحنوا لِرفعِه تسبقهم الدّموع، وإذا صرخَ طفلٌ مَسحوا التّرابَ عن ركبَتيهِ، وطبعوا قُبلةً باردةً على خَدّه.

ـ «أين رأيتَهم يا حاجّ حسين، أين؟!» قالَ الحاجّ خليل، وهو يضغطُ رأسَهُ بينَ كَفّيه.

أشاحَ الحاج حسين بِوجههِ، وشهقَ شهقةً حرّةً ما استطاعَ خنقَها، قائلاً:

ـ عندما رافقتُ الحاجّة «مريم» وأحفادي إلى خارجِ البلدة !

ـ ولماذا غامرتَ وعُدتَ ولم تخرجْ معهم؟! ...

ـ ماذا؟!... أخرجُ معهم؟!.. كَبِّرْ عقلَك يا حاجّ خليل، أتريدني أن

أتركَ جَنـي العُمرِ وولدي الحـاجّ «عبّاس» لِوحده؟!.. مُسـتحيل!.. لقد أقسمتُ ألاّ أُفارقَه ؛ فإماّ أنْ نستشهدَ معاً أو نبقى على قيدِ الحياةِ معاً.

ـ « كفى، كفى.. قتلتني يا حاجّ حسين!.. «

تناولَ الحاجّ خليل منديلهُ ومسحَ أثرَ دمعةٍ تدحرجتْ على خدّه، ثمّ احتضـنَ الحاجّ حسين وراحَ يوسعه ضـمّاً وتقبيلاً، ويُربّتُ على كتفيهِ مُودّعاً وعائداً إلى البيت.

عادَ مُحدودبَ الظّهرِ كَمَنْ ينوءُ بِأثقالِ العالم عند عودته، بدا على وجههِ شيءٌ منَ التّجهّم والانقباض. وزادَ من قلقِه ذاكَ التّوتّرُ الظّاهرُ الّذي لاحظهُ في تصـرّفاتي. فراحَ يُراقبُني، وأنا أُحيطُ بِذراعيّ رأسَ ولدي «أحمد»، وأُقفلُ أزرارَ قميصه بِأصابعَ مُرتجفة.

بِلهفةٍ لم أستطعْ خَنقَها أو إخفاءَ معالمها، سألتُه وأنا مُربكةٌ أفركُ يدَيّ وأضغطُ بِإحداهما على الأخرى:

ـ هل من خبرٍ جديد؟

قالَ، وهو يُشرقطُ كأسلاكٍ كهربائيّةٍ عندَ احتكاكِها بِالماء:

ـ أيّ خبرٍ أنتِ في صددِ انتظاره؟

قلتُ:

ـ الجيران؟... هل عرفتَ عنهم شيئاً؟ أما زالوا هنا؟!..

ـ المـوتُ اقتـربَ منَ الحـيّ، ومعظمُ البيـوتِ فرغتْ من سُـكّانها، وتُركَتْ مُشرّعةَ الأبواب، مُحطّمةَ الزّجاج، مبقورةَ الجُدران ...

مـاذا نفعلُ الآن؟! أما قلتُ لكِ مراراً دعينا نبتعدْ عن هذا المَكان، ريثما يخفُّ القصفُ وتهدأُ العاصفة؟!..

ثمنُ الصّمود والانتِصار

لقد نبّهني الحاجّ حسين قائلاً: إذا لم تخرجوا اليومَ قد لا تَجدونَ سيّارةً تُخرجُكم.. وأنا أنصحُكِ أن تقومي وتضُبّي ثيابَكِ وثِيابَ ابنِك..

- «قلْ لن يصيبنا إلاّ ما كتبَ اللّهُ لنا».. أَيَعقلُ أنْ أذهبَ وأتركَك؟!..

البلد بعدها مليانة ... لنا أسوةٌ بالحاجّ «أبو رضا» وزوجتهُ المُقعدة، و بـ «أبو سعيد» الّذي يقولونَ إنّهُ يَلجأ إلى المَغارة عندَ اشتدادِ القّصف، وبِهؤلاء المُجاهدين الّذين ما برحوا هنا، يُدافعونَ عن أرضِنا وبُيوتِنا وشرفِنا وكرامتِنا..

إنّهم يُنيرونَ عُقولَنا بِشعلةِ الصّبرِ والإيمان، بعد أن غَفَتْ طويلاً على مَقولةِ العجزِ المُطلقِ والفشلِ المُزمن اللّذينِ كانَ منَ السّهلِ على الأنظمةِ المُتتاليةِ تسويقُهما، لِقلّةِ اكتراثِها وانعدامِ مَسؤولياتها..

إنّهم يُفعمونَ قُلوبَنا بِالجرأةِ والإقدام بعدَ أنْ زعزعَتْها رياحُ الفشلِ والخُنوعِ والهَزيمة..

إنّهم يزرعونَ الثّقةَ والاعتزازَ والأملَ في نُفوسِنا بعدَ أن دمّرها اليأسُ والإذعانُ والاستسلام..

ألا تسمعُ عبرَ البَياناتِ المُتلاحقةِ أنّ أبناءنا الصّامدينَ يُواجهونَ الأعداءَ بِقلوبٍ عامرة، ونُفوسٍ مُطمئنّة.. يَستظلّونَ بِما هو أقوى وأعظم من أسلحةِ العالمِ كُلّه، بِاللّهِ سُبحانَهُ وتعالى.

كلامي هدّأَ من ثورتِه وغضبه، فاستغفرَ اللّه مُردّداً:

- والنّعم بِاللّه يا حاجة.. والنّعم بِاللّه.

منذُ أنْ سُدّتِ الدّرب، حاولَ الحاجّ «خليل» مراراً إيجادَ وسيلةٍ

لِلعُبورِ بِسيّارته وإخراجِنا من أتونِ الحرب، لكنّ الدّمارَ والرّكامَ كانَ يُطفئُ جَذوةَ حماسِهِ، فيرتَدُّ يائساً مَدْحوراً.

مع بِداياتِ اللّيل، تسلّلَ على أطرافِ أصابعه بِاتّجاهِ بيتِ السّائق «جميل». لم يتردّدْ في مُناداته وطرقِ بابهِ طرقاتٍ مُتتالية..

كانَ على يَقينٍ أنّ «جميلاً» لَنْ يتأخّرَ عن تلبيةِ أيّةِ خدمةٍ يطلبها منه.. لِذا لم يَشعرْ بِشيءٍ من الإرباكِ والحرج، حينَ عرضَ عليهِ مبلغاً منَ المال، على أنْ يقلّنا إلى أيّ مكانٍ آمن. لكنّهُ أُصيبَ بِخيبةِ أملٍ عندما أخبره أنَّ السيارة تضررت في القصف ولم تعد تسير، فهوى على السّلَّمِ قبل أن يُكملَ «جميلٌ» اعتذارَه.

أحسَّ الحاجّ «خليل» بِدُوارٍ في صدغَيه، واستولى عليهِ وَهنٌ شديد.. حاولَ العَودةَ، لكنّ خدراً راحَ يدبُّ في أطرافه ويمشي في ظهره، فيُصيبهُ بما يُشبهُ الشّلل، فاستندَ إلى أقربِ جدارٍ بِجانبِ الطّريق.

شعورٌ عارمٌ بِالخَيبةِ كانَ يُضاعفُ هُمومه، فراحَ يُحاولُ طيَّ الوقتِ بِالقعودِ حيناً والوُقوفِ حيناً آخرَ.. وخُيِّلَ إليه أنّ الأيّامَ الآتيةَ ستكونُ طويلةً وثقيلةً، وأشدَّ مرارةً من سابقاتِها، فانكفأ يُردّدُ: «اللّه ينجّينا».

ولكي أُخفّفَ من خيبتِه وانكساره، سألتُه:

- أينَ كُنتَ يا «حاجّ خليل»، انشغلَ بالي عليك!

لم يُجبْني، وقدِ انطوى على ذاته كتائهٍ في صحراء، مُحجماً عنِ الكلام، تلفّهُ هالةٌ من غموضٍ وكآبة.

لمّا ألحَحْتُ عليهِ بِالسّؤال، أجابني، كَمن يستفيقُ من خَيبته:

ثمنُ الصّمود والانتِصار

ـ قصـدتُ بيتَ جارِنا السّـائق «جميل». قلتُ لعلّـهُ ينقلُنا إلى مكانٍ بعيدٍ وآمن.

ـ أ لم نترك البيتَ في الماضي يا حاجّ خليل؟ أ نسيتَ ما جرى لنا؟

ـ لا، لا، لم أنسَ!.. لكنّهم يقولونَ: الحربُ هذهِ المرّة طويلةٌ وقاسية، ولن يتورّعَ العدوّ عن هدم البُيوتِ على رؤوسِ أصحابِها.

ـ تـوكّلْ على اللّه يا حاجّ، فالحَذَر لا يُنجي منَ القدر.. والمَوتُ يأتي ولو أغلَقْنا المِصراعَ بِألفِ رِتاج!..

ـ لكن، ينبغي علينا أخذُ الحيطةِ والحَذر، ولا يجوزُ تعريضُ أنفُسِـنا لِلهلاك.. إنّ اللّه سـبحانَهُ وتعالى يقولُ فـي مُحكمِ كتابهِ العزيز « ولا تُلقوا بِأيديكم إلى التَّهلُكة». صدقَ اللّه العظيم.

ـ وقـالَ جـلّ جلالُـه « فضّـلَ اللّه المُجاهدينَ بأموالهم وأنفسِـهم على القاعدين» فالتّشـبُّثُ بِالأرضِ هو أحدُ أبوابِ الجّهادِ المَقصـودةِ فـي الآيةِ الكريمة.. ومهما يكن من أمرٍ، فلا يعقلُ أن تشـنَّ إسـرائيلُ حرباً مُدمّرةً بِحجّةِ استرجاعِ جُنديّينِ أسيرين؟!.. هراء!.. واللّهِ هذا هراء!..

ـ كلّ شـيء مَعقول يا حاجّة.. كلّ شـيء مَعقـول!.. إنّ تفكّكَ العرب وتخاذلَهم وتقاعسَـهم عن نصرةِ قضـاياهم جعلَ إسرائيلَ تَستخفُّ بهم، وتُملي عليهم شُروطَها.

ـ مهما تكن النتيجة يا حاجّ خليل، سـوفَ لن نتركَ بيتنا وأرضـنا.. المـوتُ هُنـا أهـون عليَّ من التّشـرّدِ فـي الطّرقـات، والتّسـكّعِ أمامَ المَحلاّت، والإقامةِ في المدارسِ والسّاحات..

لقد اجتهدتُ في تزيينِ الصّمودِ والبقاء، مُعتبرةً من التّجاربِ السّابقة. ثمّ استدركتُ، كَمَنْ ينتبهُ من شرودِه، وعدتُ لأسألَ:

ـ وما كانَ جوابُ «جميل»؟

ـ اعتذرَ قائلاً: « السيارة معطلة !.. أنا حطّيت أهلي عند الكنيسة.. الدُنيا حرب، ولا أستطيعُ إصلاحها ».

على ذكرِ السّائق «جميل» وما دارَ بينه وبينَ الحاجّ «خليل»، بانَ على «الحاجّة رفعة» شيءٌ منَ الامتِعاضِ والتَذمّر، فمطّتْ شفتَيها، وهي تهمسُ في عبّها:

«على الجّريحِ أن يُداوي جراحَه بِنفسِه ! ».

على وقعِ هذا الجواب الّذي لم يُفضِ إلى أيّةِ نتيجةٍ، حسمَ الحاجّ «خليل» أمرهُ بِالصّمودِ والبقاء، فتوجّهَ إلى سريرِهِ وارتمى على طرفِهِ مُتعباً.

كانتْ عقاربُ السّاعةِ تقضُمُ ما تبقّى منَ النّهار، عندما أطفأتُ نورَ الشّمعة، ورحتُ أُصارعُ بقايا السّهدِ العالقِ بأهدابي.

لقد عاودَني شريطُ أحداثِ السّاعاتِ المُنصرمة بِما يُشبهُ الكابوس !. فكلماتُ الحاجّ «خليل» ما زالَتْ تطنُّ في أذنيّ «الحربُ هذهِ المرّة طويلةٌ وقاسية. ولنْ يتورّعَ العدوُّ عن هدمِ البُيوتِ على رؤوسِ أصحابِها»..

على صدى هذهِ الكلمات أطبقتُ أجفاني. وقد خُيِّلَ إليّ أنّني أكثرتُ منَ القيامِ والقعودِ لِتفقّدِ عقاربِ السّاعةِ الزّاحفةِ ببطءٍ نحو أرقامِ الفجر. الخَوفُ والقلقُ سرقا النّومَ من عينيّ، وهاجسُ الحربِ

ثَمَنُ الصّمود والانتِصار

قضَّ مَضجعي ؛ حتّى إذا ما تنفّسَ الصُّبحُ عن شُعاعٍ استباحَ شقوقَ النّافذة، نهضْتُ من فراشي مذعورةً، وأنا أردّدُ: «اللهمَّ اجعلهُ خيراً»، ثمّ هرعتُ إلى زوجي وولدي مُحاولةً إيقاظهما.

كَمَنْ يستفيقُ من حُلمٍ مُزعجٍ لا تزالُ بقايا أحداثهِ عالقةً في قعرِ الذّاكرة، كنتُ أُكثرُ من البَسْملة والحمدَلة، وأتلو بعضَ الآياتِ..

وتابعَتْ «رفعة»:

لقد رأيتُ فيما يرى النّائمُ أنّ جُنديّاً إسرائيليّاً طرقَ بابَ أحدِ المُجاهدينَ من أبناءِ البلدة عندَ مُنتصفِ اللّيل، وقادَهُ إلى مركزٍ للتّحقيقاتِ بالقُربِ من مُستعمرة المُطلّة مَعصوبَ العينين، في مُحاولةٍ منه لانتزاعِ بعضِ الاعترافاتِ، والوُقوفِ على بعضِ أسرارِ إخوانهِ وأماكنِ تواجدِهم..

كانتْ مُحاولاتُهُ مُرفقةً تارةً بالصّفعِ واللّطم، وطوراً بالسّوطِ والرّكلِ.. وأحياناً كثيرةً بإطلاقِ النّارِ في الهواءِ فوقَ رأسِهِ وبينَ قدَميه.. ولمّا باءتْ كلُّها بالفَشل، صوّبَ فوهةَ مُسدّسِهِ باتّجاهِ رأسِهِ، قائلاً: سَتقولُ ما عندكَ، أو يقولُ المَوتُ كلمتَه.

لكنّ المُجاهدَ البطلَ كانَ أسرعَ منَ الرّصاصة، عندما عاجلَ الجنديّ بركلةٍ مُفاجئةٍ أفقدتْهُ توازنَه ...

وقبلَ أنْ يستقرّ جسدُهُ على الأرضِ كانَ يضغطُ بكلتا يدَيهِ على عُنقه.. ولم ينهضْ من فوقِ صدرِهِ إلاّ وقد خمدَتْ أنفاسُه.

كانتْ الرّؤيا جَميلةً وغامضة، لكنّها قصيرةٌ كَمَنْ يخرجُ من غُرفةٍ ويدخلُ أُخرى. لم أُدركْ مَغزاها رغمَ أنّي رأيتُها ملءَ قلبي وجوارحي..

نعم رأيتُها!.. حدّقتُ بها حتّى كدتُ ألمسُها. كنتُ تائهةً بينَ هاجِسَين: فـألٌ يُزيّنُ لي قُدومَ النّصـرِ على جوادٍ أبيضَ، وشُـؤمٌ يقولُ إنّ الحلمَ وهمٌ والرّؤيا خداع..

بيـنَ تهيّبي وخوفي أن ينكسـرَ الحلـمُ كزجاجةٍ تتحطّـمُ وتنتهي، واطمئنانـي ومُحاولتي التّشـبّث ببقاياه عبر سـردِ وقائعهِ على الحاجّ «خليـل»، توقّفتُ مذعورةً على دويّ انفجارٍ شـلّعَ أبوابَ البيتِ، وحطّمَ زُجـاجَ النّوافـذِ، وملأ الحـيَّ بالدّخـانِ والغُبارِ والشّـظايا و الحجارةِ المُتطايـرةِ فـي كلّ اتّجاه، ثمّ تبعـهُ انفجارٌ آخرُ أقـوى منه، فهرولتُ وزوجـي وولدي إلـى الدّاخلِ لِلاحتمـاءِ بالجُدرانِ ظنّاً منّـا أنّها أكثرُ أمناً.

مَرّتْ ربعُ ساعةٍ تقريباً، ونحنُ جامدونَ في أماكننا نتّخذُ منَ الزّوايا والممـرّاتِ مَلجأً لنا، ونُنصـتُ إلى دويّ قذائـفِ المَدافعِ، وارتداداتِ انفجاراتِها الّتي تعصفُ على إيقاعٍ مُنضبط وغيرِ مُنضبط.. بحيثُ لو شئنا لما أمكننا إحصاء عددِها،

وهي تَهوي وتبرقُ وترعدُ على مَسـافةٍ أغلـبُ الظّنِّ أنّها غير بعيدةٍ عنّا.

لا أُصـدّقُ أنّ الطّائـراتِ والدّبابـاتِ كانتْ تقـذفُ وحدَها كلَّ هذهِ القنابل!.. ولا أُصـدّقُ أنّها قادرةٌ على إشـعالِ كلّ هـذهِ الحرائق!.. إذ لابدّ أنّ السّماءَ كانتْ تقذفُ لهباً وحمماً.

لقد عشنا الجحيمَ سـاعاتٍ طويلة.. اقتربَ مِنّا الموتُ مِراراً حتّى كدنا نلمسُهُ بِأصابِعنا، ونرمقُهُ بِأعيننا..

ثَمَنُ الصّمود والانتِصار

يومَها كانتْ قلوبُنا جامدةً، وأجسادُنا مُسترخيةً، وأعصابُنا من فولاذ.. ولم نكنْ مُتوجّسينَ أو مُضطربينَ ونحنُ نشتغلُ بِذبِّ البَعوضِ عن وُجوهنا وأيدينا وأرجُلِنا.. عندما انفرجتْ أساريرُ الحاجّ «خليل» عنِ ابتسامةٍ عارضةٍ، وهو يقولُ ويُقسمُ أنّ دويَّ القذائفِ وأزيزَ الطّائراتِ أهونُ بِكثيرٍ من طَنينِ البعوضِ والذّباب.

كعادتِه، أرادَ أنْ يُضفيَ على جوِّ الخوفِ والتّرقّبِ الّذي يلفُّ المكانَ بِوحشتِه شيئاً من الدّعابةِ والحياة، فنَدَّتْ عنهُ تلكَ البادرةُ قبلَ أنْ يشبكَ يديهِ خلفَ ظهره، ويخرجَ إلى المصطبة مُتنفّساً الصُّعداء، جارّاً خلفَهُ «أحمدَ» كَما لوكانَ يجرُّ قطعةَ أثاثٍ باليةً، طالباً إليّ فعلَ أيّ شيءٍ لِلتّخلّصِ منَ الذّبابِ والبَعوضِ الّذي لم نعرفْ سرّ تكاثره في هذهِ الأيّام.

ما كدتُ أهمُّ بِكنسِ الأرضِ ورشِّ المُبيداتِ، حتّى دوّى انفجارُ صاروخٍ في الخارج، مُثيراً عاصفةً من التّرابِ والغُبار..

خيوطُ الطّمأنينةِ الّتي عملتُ على نسجِها طيلةَ الأيّامِ الماضية، مؤمنةً بأنّهُ مازالتْ في هذا الكونِ كوّةٌ مُشرعةٌ على الرّجاء، سُرعانَ ما انفرطتْ كَحبّاتِ سُبّحةٍ على وقعِ ذاكَ الدّويّ الهائل، وتبعتْه حشرجةٌ ضعيفةٌ راحتْ تتلاشى تدريجيّاً كَدوائرَ ترتسمُ على صفحةِ ماءٍ هادئة:

«وَيْنِك يا حاجّة، دَخيلِك ساعديني كي أقومَ من تحتِ الرّكام» !.

ضاقتْ أنفاسي وأنا أشقّ الدّخانَ والغبارَ لاهثةً. أحسستُ وأنا أتلمّسُ الخروجَ منَ الغرفةِ أنّني كَمكفوفٍ يُحاولُ التّعرّفَ إلى الأشياءِ بِكفّيهِ المَفتوحَتينِ أمامهُ.

عندما انجلى الدّخانُ، صُعقتُ لمّا رأيتُ زوجي وولدي ينزفان دماً وقد طُمرَ القسمُ الأكبرُ منهما تحتَ الأنقاضِ والتّرابِ والرّكامِ وبقايا الأشجار..

منظرُ زوجي وولدي جعلَ أنفاسي تقِفُ في حَلقي، وقلبي يَكُفُّ عن الخفقان.. أمّا ما حدثَ بعد ذلكَ، فأنا لا أعي شيئاً منه. كلّ ما أذكرُهُ أنّي لمّا استَعدتُ وَعيي رحتُ أصرخُ وألطمُ، وأعبثُ بالرّكامِ والأنقاضِ حتّى تسنّى لي انتشالُ ولدي.. أمّا زوجي، الّذي سقطَ عليهِ عمودٌ ثقيلٌ منَ الإسمنتِ المُسلّح، فقد بذلتُ المُستحيلَ لإنقاذه، لكنّ مُحاولاتي باءتْ بالخيبةِ والفشل.

تملّكني شبهُ جنون وأنا أراهُ يفتحُ عينيهِ ويُغمضُهما باحثاً عن أيٍّ كان، وقد ملأتا مساحةً كبيرةً من وجههِ الّذي اصفرَّ لِكثرةِ النّزفِ والألم، فصرتُ أركضُ يميناً ويساراً.. أهمُّ إلى الأمامِ لأعودَ على الأثرِ إلى الوراء. وما زالَ هذا دأبي حتّى أعياني التّعبُ والخوفُ.. فرحتُ أصرخُ بأعلى صوتي وأستغيث:

«يا جيران.. يا ناس، ردّوا عليّ! ساعدوني، بَس شيلوا الرّدم عن جوزي»

لم يستجبْ لاستغاثتي أحدٌ!.. لأنّهُ ما من أحدٍ في بيوتِ الحيِّ الّتي كانتْ خرساءَ خاويةً قد هجرها أهلُها، ومُطبقةً على الحُزنِ في كآبةٍ ووحشة.

رحتُ أبحثُ في كلِّ مكانٍ عمّن يُساعدُني والخوفُ يُرنّحُ خُطاي. ولكن عبثاً، فالدُروبُ مُقفرة، وليسَ فيها ما يدلُّ على الحياة!

ثمنُ الصّمود والانتِصار

كضوءٍ يومضُ من خلالِ سُحبٍ خريفيّة، كنتُ أظهرُ وأختفي على دروبِ الخيامِ وأزقّتها.. أمام مداخلِ البيوتِ وفي حدائقِها وخلفَ أسْوارِها..

قالتْ «رفعة»:

لقد وصلتُ إلى مُحاذاةِ المُعتقل، فخفتُ وارتدّيتُ لأنّ منطقةَ المُعتقلِ مَكشوفةٌ وخطرة..

وقالَتْ: لقد مرَرتُ بِالقربِ من حيّ المَسلخ فذُعرتُ لِما شاهدتُهُ من دمارٍ وخراب..

لقدِ اسودّتِ الدُنيا في عينيّ!.. فكنتُ أتعثّرُ في سيري، وأنا أذرفُ الدّموعَ وأطرقُ الأبوابَ، وأُنادي بِأعلى صوتي: «مين في هون.. دخيلكم يا أهل بلدنا ساعدوني».

لكن لا حياةَ لِمن تُنادي!..

فقد أقفرتْ أحياءُ الخيامِ من أهلها، ومن تبقّى منهم اختبأ في الملاجئ.. أمّا المُجاهدونَ فكانوا إذا حدثَ أنْ شاهدتُ أحدَهم.. كانَ يبدو كشبحٍ يظهرُ ثمّ لا يلبثُ أن يختفي ويذوب، كأنّما تبتلعُه الأرضُ أو تمتصّه العتمة.

وأخيراً، شاهدتُ صدفةً عدداً من الرّجالِ خارجينَ من ملجأ إحدى المَدارس، لم أعدْ أتذكّرُ عددَهم.. إنّما أُقدّرُ أنّهم أقلُّ من خمسة.. وأنّهم على ما أذكر لم يكونوا من المُقاتلين. فارتميتُ تحتَ أرجلِهم مَغشيّاً عليّ، مُستغيثةً وطالبةً المُساعدة.

رافقني أحدُهم.. صعدنا فوقَ تلالِ الرّكام، وهبطنا في الحُفرِ والفجواتِ الّتي أحدثَها الدّمار.. وأخيراً وصَلْنا. رفعَ العمودَ عن

زوجي، وطلبَ إليّ مُساعدتَهُ لِوضعِه على المصطبة أمامَ مدخلِ البيتِ. أسندْناهُ إلى الحائطِ على أملِ أنْ يعودَ لاحقاً لإسعافه.

كانتِ الدّقائقُ تزحفُ ببطءٍ وتثاقلٍ، عندما أعلنَتِ السّاعةُ العاشرةَ صباحاً، وأنا أقتعدُ الأرضَ جامدةً بقربِه، أموتُ مِنَ الهلعِ والخوفِ والانتظار.. لكم تمنّيتُ الموتَ وأنا أواسيهِ!.. أُحاولُ التّخفيفَ عنه، تارةً بِتمسيدِ يدَيهِ وجبينه، وطوراً بالدّعاءِ والتّوسُّلِ إلى الله، والاتّكالِ عليه.

طلبَ إليّ شربةَ ماء، وهو يقول: «اللّه يكون بِعونك يا حاجّة ... أنا ظهري مكسور، وأعرفُ أنّني سأموت»

قلتُ: إلي اللّه، فمَنْ يتّكِل عليه لا يُخَيِّب ظنَّه.. هو يُساعدُني ويأخذُ بِيدي.

وتابعتْ رفعة:

في ذلكَ الصّباح كانَ كلُّ شيءٍ حولي يتبدّل!.. حتّى الشّمسُ الطالعةُ من خلفِ جبلِ الشَيخِ كانتْ صفراءَ شاحبة، وهي تُبدّدُ أشعتَها على الدّرب، ثمّ تتمدّدُ ظلالاً تقذفُها شجرةُ الزّنزلخت حتّى المِصطبةِ أمامَ البيت، حيثُ خليلٌ مُمدّدٌ أمامي، عيناهُ مفتوحتانِ على فراغٍ عميقٍ، وبطنُهُ مُنتفخٌ، وأنفاسُه لاهثةٌ ومُتتابعة..

لقدِ استفاقَ من غيبوبته، وراحَ يردّدُ اسمي مرّاتٍ مُتتالية «رفعة.. رفعة.. رفعة»، كمَنْ يُحاولُ ترميمَ فجوةٍ في ذاكرتِه المُتصدّعة، ثمّ تحرّكَتْ يدُهُ ناحيتي أنْ وداعاً، وركبَ زورقَ الرّحيل!.. ماتَ بِهدوءٍ يُشبهُ الاعتذار، وعلى وجهه ملامحُ شعورٍ بِالفوزِ والانتصار.

ثمنُ الصّمود والانتِصار

وأضافتِ الحاجّة «رفعة»:

ما ألمّ بي صباحَ السّابعَ عشرَ من تمّوز ليسَ حزناً ولا حنيناً!.. بل بقايا زمنٍ ودودٍ كانَ يتكسّرُ نُتفاً صغيرةً أمامَ عينيّ ويمضي بِرفقةِ الحاجّ خليل إلى الأبد!..

لا أُخفي أنّهُ كانَ ثمّةَ هلعٌ حقيقيٌّ يغزوني وأنا أُفكّرُ بولدي المُعاق والمُصاب، وكيفَ أتدبّرُ أُمورهُ بعد غيابِ أبيه.. فالنّاجي من المَوتِ قد يُواجهُ أحياناً جحيماً أشدّ فتكاً وأمرّ طعماً من الموتِ نفسه!..

منذُ ذلكَ اليوم، أصبحتُ فريسةَ الهواجسِ والأوهام. يقتحم الحاجّ خليل مناماتي، يومئُ إليّ مُتّهماً، فأستفيقُ مذعورةً، مُبلّلةً بِالعرقِ البارِدِ في حالٍ منَ الاختناق.

ستّ ليالٍ رهيبةٍ قضيتُها بِالقُربِ من رُفاته!.. لم يَغمضْ لي جَفنٌ.. ولم يستقرّ بي مَضجعٌ. كانَ النّومُ يأخذني لبضع ثوانٍ، ثمّ أهبُّ خائفةً مَذعورةً، لأعودَ وأُخبّئَ رأسي تحتَ الوِسادةِ، وأُحاولَ أنْ أغفو لَحظاتٍ، لكنّني لا ألبثُ أن أنتفضَ مَذعورةً، فأنظرَ إلى ابني، وألاحقَ هواجسَه كَمَن يُلاحقُ أسرابَ فراشاتٍ بِشبكةٍ.. وأتذكّر زوجي فأُناديه: خليل.. حاجّ خليل.. ويذوبُ قلبي إذ أناديهِ فلا يُجيبُني!..

كم من مرّةٍ نسيتُ أنّهُ فارقَ الحياة، فاقتربتُ منه وهززتُهُ من كَتفه وأنا أصرخ «رُدّ عليّ»، ومن ثمّ أنتبه وقد تفصّدَ العرقُ على جبيني.

ستّةُ أيّام أطولُ من دُهور!.. قضيتُها بِالقُربِ من جثّةِ زوجي، كأنّما أردتُ أنْ أمدّ جسراً بينَ الحياةِ والمَوت.. قضيتُها وعيناي كالنّافذتَينِ مَفتوحتانِ، ولكنْ بلا حياة.. كالأبوابِ الّتي ترى كثيراً من الدّاخلينَ

والخارجينَ.. وتصبحُ مع مرورِ الوقتِ لا تُبالي بمَنْ يدخلُ أو يخرجُ منها.. هكذا عيناي.. فهُما مَفتوحتانِ ولا تريانِ سوى الأرقِ والنّدم!..

قالتْ إنّها تشعرُ بِالأنسِ والطّمأنينةِ بِقربه، حتّى ولو كانَ ميتاً!..

وقالتْ إنّها ترتاحُ في أنْ تنظرَ إليهِ وتُكلّمه، حتّى ولو لم يُجبْها!..

وتابعتْ وهي تمسحُ الدّموعَ بِطرفِ مِنديلها: ماذا أفعل؟!.. ليتَ ما جرى كانَ كابوساً أو كذبة!..

ثمّ استدركتْ وعادَتْ إلى هذيانِها: ماذا أفعل؟!.. هرعتُ لأنقذه من بينِ النّارِ والرّكامِ والدّخان.. لكنّ قسوةَ الموتِ عاندَتني!.. زوجي ماتَ مرّة، وأنا متُّ ألفَ مرّة!.. متُّ من الخوف.. ومتُّ منَ الحزن.. ومتُّ منَ الوحدة، ومن رُؤيته مرميّاً أمامي ولا أستطيعُ أن أفعلَ شيئاً!..

بقيتْ جثّةُ «خليل» ستّة أيّام بِلياليها مُكوّمةً أمامَ البيتِ كفزّاعةِ العصافير، تحرسُهُ وتذودُ عنه، لا تتجرّأ على الاقترابِ منها سوى القططِ الجائعة والكلابِ الشّاردة.. وبقيتْ أشجاني وأحزاني الموشومةُ بِالعذاب حيّةً مُتجدّدةً نازفةً.. في حين أنّ الطّيرانَ الحربي المُعادي لم يَغبْ عن سماءِ الخيام، ولم تتعبْ فوّهاتُ المدافع لحظةً واحدةً من صبِّ جامِ غضبِها وحممِها على مدينةِ الفرح، وجارةِ المَرج، ورمزِ التّحرير..

صبيحة الثّاني والعشرينَ من تمّوز انطلقتُ كعادتي إلى الشّارع، الّذي ما عادَ فيهِ شيءٌ يُشبهُ الشّوارع!.. بدا لي كلُّ شيءٍ هادئاً. وحدهُ الموتُ كانَ جاثماً أمامَ كُلِّ بيت، وعلى مُفترقِ كلّ زاويةٍ ودرب..

ثمنُ الصّمود والانتِصار

قالتْ رُفعة:

«قصـدتُ المُعتقل. صـدّقوني لا أدري كيفَ وصـلت!.. ولا أعلمُ أيّ طريقٍ سـلكت!.. كلّ ما أذكرُهُ أنّني كُنتُ أركضُ وأبكي مَرعوبةً مُتلفّتةً ورائي، كما لو كانتْ جثّةُ «خليل» تُطاردُني وتعدو خلفي!..»

وأخيـراً، جاءتْ لحظةُ الفرج!.. لمَحتُ رجلاً عن بُعدٍ، فلمْ أُصـدّقْ عينيّ!.. توسّلاتي فقط هي الّتي استمهلَتْهُ..

كُنتُ كَتائهةٍ في صـحراءَ مُترامية الأطراف يُضـنيها وهجُ الشّمسِ ولَمعانُ كُثبانِ الرّملِ، قبلَ أنْ تجدَ سـابلةً تُطفئُ ظمأها، ويُظلّلُها فيءُ أشجارِها غبَّ أيّام منَ التّعبِ والإرهاقِ المُضني..

حمـدتُ اللّه، وركعـتُ على الأرضِ أمامَـه خائرةَ القـوى مُنتحبةً مُسـتغيثةً.. ودَدتُ تقبيلَ يديهِ ورجليه، وأنا أتوسّلُ إليهِ مُساعدَتي على دفنِ زوجي الّذي لم تعُدْ جُثّتُهُ تحتملُ البقاء.. فقد أصـبحتْ مُنتفخةً، والدمُ والماءُ ينـزفان من رجلهِ اليُسـرى المُعلّقةِ بِجسـمِه بِخيطٍ رفيعٍ واهٍ منَ الجلدِ واللّحم، فيما رجلُه الأخرى مَبتورةٌ من الكاحل.

وتابعتْ تقول:

كانَ ثمّةَ جَزعٌ حقيقيٌّ يَغزوني.. يقرضُ أعصابي، ويعصفُ بي قويّاً جارفاً.. وأنا أنتظرُ كلمةً من ذلكَ الرّجل، فعطفَ عليّ، وراحَ يُواسيني بِـكلام لم أكُنْ أسـمعُه.. ثمّ رفعني عنِ الأرضِ ووعدني قائلاً: توكّلي على اللّه يا أختي.. سـآتيكِ إن شـاءَ اللّه لأخذِ الجثّةِ وعملِ ما يلزم.. انتظريني في البيت..

حدثَ ذلكَ في العاشـرةِ تماماً من صـبيحةِ يومِ السّبت. وقد عدتُ

إلى البيتِ خائفةً مُتردّدةً.. ورحتُ أنتظرُ وأنتظر..

كانَت عقاربُ السّاعةِ تشيرُ إلى الثّامنةِ مساءً، وأنا وابني توحشُنا رهبةُ الجُدرانِ المُطبقةِ علينا بِظلامِها المُخيف، ورهبةُ المَوتِ المُقيمِ معنا والجاثمِ أمامنا في جثّةِ الحاجّ «خليل»، ورهبةُ الانتظارِ الطّويل..

حين توقّفتْ سيّارةُ الصّليبِ الأحمر في أوّلِ الدّرب، ونزلَ منها ثلاثةُ رِجالٍ اتّجهوا نحونا، عرفتُ أحدهم، إنّهُ ذاكَ الّذي انتظرتُه طويلاً.

صحيحٌ أنّهُ تركني ووحشتي فريسةَ الانتظارِ يوماً بِكامله.. لكنّ الصّحيحَ أيضاً أنّهُ بَرّ بوعدِه في زمنٍ يصعبُ على النّاسِ الوفاءَ بِعهودهم.. طلبَ سائقُ سيّارةِ الإسعافِ مِنّا الصّعودَ على عجلٍ إلى المقعدِ الخلفيّ.

كأرنبَيـنِ أطلاّ من جحرَيهما إلى الضّوءِ بعد شتاءٍ طويل، رحنا نعدو بِاتّجاه السّيّارةِ، مُزوّدَين ببقايا من رمقِ الحياة.

كان «أحمد» يتكمّشُ بأطرافِ ثوبي، مُتعثّراً في خطواتِه، كمَنْ يخافُ أن يستفردَه غولُ الوحشة. فلعلّ غيابَ أبيهِ بِالطّريقةِ الّتي غابَ بها، جعلهُ يُموّهُ الفراقَ المؤلم في التّعلّقِ بِأهدابي.

كعادتي، عندَ خروجي كلّ مرّةٍ من البيت، دسَسْتُ المفاتيحَ في عبّي ... ثمّ رحتُ أجسُّها بِأطرافِ أصابعي كأنّني في زيارةٍ قصيرةٍ لا تلبثُ أنْ تنتهي، ولسوفَ أعودُ إلى بيتي غداً أو بعد غدٍ على أبعد تقدير! ...

ثمنُ الصّمود والانتِصار

لرُبّما نَسيتُ أو تناسيتُ رحلاتِ التّهجيرِ السّابقة والعذاباتِ المُرّة، والّتي أصبحتْ على مدى العمر خبزَ الخياميّينَ وقوتَهم اليوميّ.. نسيتُ أنّ عدداً من أبناءِ بلدَتي، وخاصّةً العاجزينَ منهم، كانوا يُخيّمونَ أيّاماً على ضِفافِ نهرِ الحاصباني، مُفضّلينَ الانتظارَ على ما عداه ... ونسيَتُ أنّ بعضهم ماتَ وهو ينتظر!..

هذهِ الأفكارُ كانتْ تُراودُني، فينخلعُ لها قلبي وأنا أنظرُ من زجاجِ السّيّارةِ الخلفيّ، فأرى الرّجالَ مُنشغلينَ بِجثّةِ زوجي، وقد وضعوا كمّاماتٍ على وُجوههم.. وحملوا أشياءَ كمثلِ المَعاولِ والرّفوشِ في أيديهم.

ها هم يتّجهونَ نحوي. يبدو أنّهم اتّفقوا في ما بينهم على جعلِ الجُثّةِ وديعةً في حُفرةٍ من الحفائرِ الكثيرةِ الّتي خلّفتها القذائفُ الحاقدة، ريثما تسكتُ أصواتُ المَدافع، وتخرس الحرب..

في ذاكَ المساء، أتذكّرُ وسيّارةُ الإسعافِ ماضيةٌ في دربٍ مُهشّمةٍ تحاولُ العُبورَ بينَ الرّكام والدّمار، أنّني فوجئتُ بابني «أحمد» يُحاولُ فتحَ بابِ السّيّارةِ والتّرجُّل.. ويلحُّ على العودةِ إلى المنزلِ مُصدراً همهمةً وأصواتاً جنائزيّة. حاولتُ مَنعَهُ مراراً، لكنّه لم يأبه لمُحاولاتي، بل أبدى نُفوراً، وهمّ بِالعودةِ.. وظلّتْ دمعاتٌ مُتحجّرةٌ تجولُ في عينيهِ المُسمّرتينِ في المكان حيثُ جثّةُ أبيه.

واحسرتاه!.. أيّ نظرٍ ثاقبٍ يستطيعُ أن يخرقَ جدارَ هذا المُعاق، فيُسهّل قراءةَ أفكارِه القابعةِ خلفَ تصرّفاتِهِ الغريبةِ وصَمتهِ المُريب!..

دفنتُ زوجي، وتركتُ الخيامَ على مَضض!..

مع بدءِ ساعاتِ اللّيل الثّقيل تَعبتْ فوهاتُ المَدافع. لفّ الظّلامُ الخيامَ فنامتْ بِمَنْ فيها، ما عداي أنا وابني المُعاق!..

كنتُ أتوسّلُ ذاكرتي، علّها تُفرجُ عن نقطةِ ضوءٍ تنيرُ العتمةَ الّتي تقفُ بينَ ماضيّ وحاضري الضّائعَينِ في غَمرةٍ منَ الأسى.

أمّا «أحمدُ» فكانَ يُصارعُ الأشباحَ الّتي تُهومُ حولَهُ، كَمَنْ يُقاتلُ ضدّ القدر، فأهرعُ لكي أُوقظَه وأُخلّصَهُ من الكابوس بإعطائهِ جُرعةً من الماءِ الباردِ يطردُ بواسطتها الأشباحَ، ويقوى على التّلفّظِ باسم اللّهِ.. لكنّهُ لا يلبثُ أن يعودَ ويغرقَ من جديدٍ في الهَذيان، ذلكَ الهَذيانُ الّذي لا يقدرُ الخوفُ أنْ يُرعبَهُ، أو أنْ يستمرّ في إخافته.

كم منَ الأسئلةِ حبستُها حتّى لا يتحوّلَ النّدبُ نزفاً قاتلاً؟!..

إلى أينَ أذهبُ الآن؟!..

ماذا يُمكنُ أن أفعل؟

أينَ يُقيمُ أولادُ زوجي؟ أ يصحُّ أن أنزلَ عندَهم؟..

أسئلةٌ مُلحّةٌ وكثيرةٌ كانتْ تجولُ في خاطري دونَ أن تتسنّى لي الإجابةُ عن واحدٍ منها!.. فأصرخُ بِلهفةٍ: يا أللّهُ كُنْ عوني وخُذْ بِيدي.

من غيرِ أن ينتابَني قلقُ المسافات، وتذكّرُ العناوين ... ومن غيرِ أن يمرّ في خاطري طيفٌ يزيدُ فكري بلبلةً إذا ما تذكّرتُ أنّ جيبي خالٍ من أيّةِ ورقةٍ نقديّةٍ تُلبّي ساعاتِ قهري الأولى..كنتُ بِقدرِ المُستطاع أحاولُ إزاحةَ هذهِ الوَساوسَ عن فكري المُتخفّي خلفَ ضياعي،

ثمنُ الصّمود والانتِصار

والجاهزِ لِتلقّي فصولٍ أخرى من المَتاهاتِ وغرائبِ المُفاجآتِ..

مرّ الوقتُ بِسرعةٍ كأنّهُ يُشمّرُ عن ساقَيه.

كانتِ الطّريقُ خاليةً تماماً إلاّ من أزيزِ الطّائرات، وسيّارةُ الإسعافِ تطوي المَسافاتِ مُستوحشةً. تنحدرُ حيناً، وتُصعِّدُ أحياناً.. حتّى آنسَتْها أخيراً بعضُ السّيّاراتِ وهي تعدو عن يسارِها، كأنّها معها في سباقٍ محموم.

بعدَ ثلاثِ ساعاتٍ منَ السّفرِ المُضني لاحتْ لنا مَشارفُ بيروتَ، وهي خاتمةُ المَطاف.

وحتّى لا أقعَ فريسةَ التّردّدِ، قصدتُ المكانَ الّذي لَجأ إليهِ أولادُ زوجي.. كانَ يستحيلُ عليّ البقاءُ معهم لأنّهم كُثر، وينزلونَ بِضيافةِ أناسٍ لا أعرفُهم. فتوجّهتُ توّاً إلى منزل شقيقي في الشّياح، ومعي ابني يتبعُني كظلّي ...

حدثَ كلُّ هذا عشيّةَ الثّاني والعشرين من تمّوز عام ٢٠٠٦.

في ذلك الأسبوع، كانتِ الولاياتُ المُتّحدةُ تحتفلُ بِقيامةِ الدّيموقراطيّة، وكانتْ قنابلُ المدافعِ الإسرائيليّةِ مُواظبةً على دكِّ بيوتِ الخيامِ وتهجيرِ أهلِها، والقذائفُ العُنقوديّةُ الحاقدةُ تعزفُ أناشيدَ الموتِ والخرابِ فوقَ رؤوسِ المُطالبينَ بِالعدلِ والحرّيّةِ والدّيمقراطيّة!..

في شقّةٍ مُتواضعة تَحتفي بِالفُقراءِ من أمثالنا، وفي الطّبقةِ الأولى من مبنىً قديمٍ في محلّةِ الشّيّاح، خلعتُ خوفي، وحطَطْتُ الرّحالَ.

البيتُ لم يتبدّل عن عهدي به، لولا أنّ الصّمتَ والجدبَ حفرا في

خشـبِ أبوابهِ ونوافذهِ خُطوطاً واجمةً ذاهلـةً كأنّها لوحةٌ قُدّتْ ألوانُها منَ اليأس.

اليَومَ تعودُ بي الذّاكرةُ إلى سـنواتٍ خلتْ. المَبنى شاخَ ولم يتغيّرْ فيه شـيء .. الجيرانُ والأقارب زوّجوا أولادهـم ورُبّما أحفادَهم وما برحوا هُنا.. وحدي أنا بَرَتِ السّنينُ جسَدي، وذهبَتْ بِأحلى سنواتِ عُمري..

تُتابعُ «رُفعَة» وهي تُكفكفُ دموعَها:

لقـد عدتُ إلى ذلكَ المكانِ بِخلافِ ما خرجتُ منه.. فمنذُ بِضـعةِ عقـودٍ تركتُ الحيّ بِرفقةِ زوجـي... واليومَ أعودُ بِدونِـه حاملةً هُمومَ الدّنيـا كلّهـا، وقد تركَ بِعُهدتي ولـداً مُعاقاً يلزمُهُ الكَثيـرُ منَ العنايةِ والاهتمام.

قسوا عليّ ولاموني قائلين:

«ما الّذي حملكَ على البقاءِ طيلةَ هذه الفترةِ الصّـعبة؟!..» ولِماذا خاطرتِ بِحياتِكِ وحياةِ زوجِكِ وابنِكِ؟!..

فكانَ لسانُ حالي يُجيبُهم:

«لقد ذُقنا في الماضـي مرارةَ التّهجير، وما رفَّ لأحدٍ جَفنٌ علينا. فتعلّمنا وأيْقنا أنّ تحدّي القتلة يكونُ بِصـمودِنا وبقائنا!.. لكنّ الحاجّ «خليل» لم يصمدْ، فأربكني وتحدّاني بِغيابهِ الطّويل».

اليومَ أدركتُ أنّ بينَ ماضـيّ المَوشوم بِالفرحِ وحاضري التّائهِ في دهاليزِ اليأسِ حِجاباً كثيفاً كثافةَ اللّيلِ الّذي يحولُ بينَ الشّيءِ وظلّه.

هُنـاكَ في ذلكَ المكانِ منَ الضّـاحية، لم يتغيّرْ عليّ شـيءٌ سـوى أنّني فارقـتُ زوجي.. لكنّني لم أُفارقِ الأصـواتَ المُخيفـةَ والمُرعبة

ثمنُ الصّمود والانتِصار

الّتي كانتْ تُحدثُها الغاراتُ الإسرائيليّة، وقذائفُ البَوارجِ الحربيّة المُرابطةِ قُبالةَ الشّاطئ وهي تدكُّ المَباني السّكنيّة، والمؤسّساتِ الاقتصاديّة، مُرتكبةً أبشَعَ المَجازرِ بِحقّ المَدنيّين الآمنين.

بقيتُ في ذلكَ المَخدعِ.. وبقيتْ أخبارُ المعاركِ شُغليَ الشّاغل وقوتيَ اليوميّ.

فمثلما توقّفتْ أوراقُ الرّزنامةِ على اليوم الّذي فارقَني فيهِ زوجي، كذلك أُصيبتْ بِالعدوى ساعةُ الحائطِ، فتمهّلتْ وأسكتتْ دقّاتِها يومَ الاثنين الواقع في ٧ آب ٢٠٠٦.

ففي ذلكَ اليوم عادَ جاري الحاج «علي» مع عائلته إلى بيته الواقع في الطّبقةِ الرّابعة من المبنى الّذي نُقيمُ فيه.

في طريق عودته لاحظَ أنّ محطّةَ المحروقاتِ الّتي تقعُ على بُعدِ عشراتِ الأمتارِ مُكتظّةٌ بِالسّائقين وسيّاراتهم. كانَ بودّهِ أن يملأ خزّانَ سيّارته بِالوُقود، لكنّهُ تردّدَ أمامَ الجحافلِ المُنتظرة، فأكملَ طريقَه.

في فترةِ ما بعد الظّهر استأنفَ الطّيرانُ الإسرائيليّ غاراتهِ على الضّاحية. كانتِ المباني السّكنيّةُ في محلّةِ الشّيّاح والمناطقِ المُجاورة تهتزُّ بِفعلِ قوّةِ التّفجيرِ الّتي تُحدثُها الصّواريخ. وكان الحاجّ «علي» كُلّما سمعَ دويّ انفجارٍ تحوّلَ إلى نافذةٍ مُطلّةٍ على الضّاحية، فيرى الدّخانَ والغبارَ الأسودَ يزحفُ بِاتّجاهِ الجبل، فيتأكّدُ أنّ الغاراتِ ما زالتْ بعيدةً عنّا.

أكثرُ من خمسِ غاراتٍ مُتتاليةٍ استَهدفتِ الضّاحيةَ بِوتيرةٍ مُنتظمةٍ، وبِفارقٍ زمنيٍّ بسيط، والحاجّ «علي» يُتابعُ ما يجري، ويُطمئنُنا أنّ

القصـفَ مازالَ بعيداً، وأنّهُ لم يتجاوزْ دوّارَ «المشَرّفيّة» شمالاً، فتهدأُ نفوسُنا لحظةً وتستكين!.

«هـذهِ الغـارةُ مُختلفـةٌ عنْ سـابقاتها»، قـالَ الحاجّ «علـي» بِنبرةٍ مُختلفة، وقدِ انخلعَ قلبُهُ وهو ينظرُ حيثما تعوّدَ أن يرى سُحبَ الدّخانِ والغُبار، مُتجاهلاً تحطّمَ زجاجِ النّوافذِ وقرقعةَ الأبوابِ المُغلقة.

يا سـاترا!.. لقد قُصِـفتِ المَحطّة. كانَ الغبارُ والدّخانُ يتصـاعد لِجهةِ الشّـرق، وضـجيجُ النّاسِ وصـخبُهم يختلطُ بِأبواقِ السّـيّاراتِ المُتّصلةِ بِدونِ انقطاع..

وتابـعَ الحـاجّ «علـي»: لقـد دهَمنـا الخطـرُ وأصـبحتِ المنطقةُ مُستهدفةً. يجبُ أن نبتعدَ عن هذا المكان.

كانتِ السـاعةُ تُقاربُ التّاسعةَ مسـاءً، عندما هوى وعائلتُهُ بِسُرعةِ البرقِ على سُلّم البناية.

اليومَ أتذكّرُ أنّي رأيتُ أخيلَتهم تجري خلفَهم وسمعتُ وقعَ أقدامهم، وأنا أنتظرُ قدري في الداخل، فأيقنتُ أنّي تُرِكْتُ وحدي رهينةَ الخوفِ والهلع!..

اليـومَ أتذكّـرُ آخرَ كلمـةٍ قلتُها وهـم يتـوارونَ على سُـلّمِ البناية: «تركتموني لحالي!.. حرام عليكم، خذوني معكم».

وآخرَ كلمةٍ سمعتُها: «لن أتخلّى عنكِ، انتظريني، سوفَ أعودُ إليكِ لأصطحبكِ إلى مكانٍ آمن»

تبيّنْ لاحقاً أنّ المنطقةَ المُستهدفةَ هي مَبنًى يقعُ بِالقُربِ من جامعِ الحجّاج، وقد لَجأَتْ إليهِ عائلاتٌ كثيرةٌ هرباً منَ الجحيم.

ثمنُ الصّمود والانتِصار

لـم يعُدْ بإمكاننا البقـاءُ، فكانتْ طرابلس محطّتَنـا الثّانية.. فمنَ الصّعـبِ جـدّاً أنْ يحويـكَ المكانُ الّذي ليسَ لكَ فيهِ ذكـرى.. ومنَ الصّعبِ أيضاً أنْ تجدَ نفسَكَ في مكانٍ وروحُكَ تُهوّمُ في مكانٍ آخر..

لَبثنـا على هـذهِ الحال حتّى يـوم الاثنين الواقع فـي ١٣ آب موعد سريـان قرار وقفِ الأعمالِ العدائيّة. في هـذا اليوم، كانَ مَوعدُنا مع التّحدّي الكبير، حيثُ راهـنَ الأعداءُ وكلّ المُتعاونينَ معهم على عدمِ عودتِنا السّريعةِ إلى قُرانا وبُيوتِنا.

لو كانوا مكاننا لانتظروا العودةَ على جمرِ القلق!.. ولو علموا أنّهُ في كلِّ مـرّةٍ يهتزُّ فيها أمنُ الجَنوبِ تكونُ الخيامُ اللّقمةَ الّتي تعلقُ في زَورِ العـدوّ الإسرائيليّ، لَما لامـوا قُلوبَنا وهي تجري في سباقٍ مع المركبةِ الّتي أقلّتْنا!..

عدتُ بِهَلعٍ وخوفٍ مِمّا ينتظرُني. وصـدَقتْ مشـاعري، وليتَها هذهِ المـرّة كانتْ كاذبة!.. فإذا الخيامُ تلالٌ من الدّمار فوقَ تلال، وجبالٌ منَ الرُّكام فوقَ جبال.. وأنقاضٌ تُعانقُ أنقاضاً..

السّـيّاراتُ العائدةُ والمُحمّلةُ ببعضِ الأمتعةِ كانتْ تخترقُ الشّوارعَ بِصـعوبةٍ بالغةٍ بعد أنْ عملتِ الجرّافـاتُ على إزاحةِ بعضِ تلك التّلالِ و الجبال.

المَدخلُ الشّـماليُّ بِفيلاّتِهِ الأنيقـةِ تَحوّلَ إلى دهاليزَ مُخيفةٍ، وحيُّ الجلاحِيّة تحوّلَ إلى أطلال.

شـارعُ المُعتقلِ الّذي كانَ واسـعاً وأنيقاً فقدَ رونقَهُ وبهجتَه. والحيُّ الغربيُّ أصبحَ في خبرِ كان!.. سـيّاراتُ الشّبحِ الأنيقةُ صارتْ أشباحاً مُتفحّمةً سوداء.

أمّا المُعتقـلُ الّذي كانَ محجّةً لِلوفودِ والـرّوّادِ وطلبةِ المدارسِ فقد أصبحَ أثراً بعدَ عين. فالاستراحةُ القرميديّةُ على مَدخلهِ عصفتْ بها يدُ المَنون، وقاعةُ الاستقبالِ الّتي حلّ فيها كِبارُ القومِ لم تعُدْ في مَكانِها.

الزّنزاناتُ الّتي شهدَتْ اعتقالَ وتعذيبَ المُجاهدينَ، والّتي تحوّلتْ إلـى متحفٍ حربيٍّ في فتـرةِ التّحرير، طُمسَـتْ معالمُهـا وأُزيلَتْ منَ الوُجود.. وحدها آليّاتُ العـدوّ وملاّلاتُه الّتي غنمَها المُجاهدونَ أثناءَ حربِ التّحرير بقيتْ صامدةً وسطَ الدّمارِ والرّكام..

وختمتْ رفعة قائلةً: هذهِ قصّـتي، وهي شـبيهةٌ بِقصصِ الكثيرينَ منَ الصّـامدينَ الّذينَ لم يجدوا لهم فسـحةً يلتقطون فيها أنفاسَهم في أرجاءِ الوَطن، فآثروا البقاءَ ضاغطينَ على الجراح، عاضّينَ على النّواجذ.

ثَمَنُ الصّمود والانتِصار